البيت العربي ذو الفناء في العصر البيزنطي بجنوب سورية كعمارة محلية فريدةً "مثال منزل فلافيوس سيوس في قرية الهيات – جبل العرب"

الدكتور المهندس غسان برجس عبود[1]

الملخص

نظر الإنسان للسكن في العصور القديمة على أنه مكانٌ مؤقتٌ له في هذه الحياة، فاستخدم في بنائه المواد القليلة الديمومة (الخشب، الطين)، في حين استخدم في بناء الأبنية الدينية من معابدَ وأضرحةٍ مواد ذات ديمومةٍ كبيرةٍ (الحجر) باستثناء البلدان التي تفتقد إلى الحجر، وبذلك بقيت الأبنية الدينية هي الأساس في الأوابد المعمارية لأغلب دول العالم. من هنا نجد أن الأبنية السكنية القديمة في جنوب سورية (هضبة حوران– السهل والجبل) لها قيمةٌ أثريةٌ كبيرةٌ كونها من الشواهد القليلة أو النادرة الباقية في العالم على عمارة الأبنية السكنية لتلك العصور، ويعود الفضل في ذلك لاستخدام الحجر البازلتي في بنائها وهذه حالة استثنائية في عمارة الأبنية السكنية.

جميع المنازل في هذه المنطقة لها شكل واحد وبنية واحدة ، فهي تتألف من وحدات مغلقة تتوضع حول باحة داخلية، حيث سيطر نمط معماري وحيد على هذه المنازل يتصف بما يأتي: البناء من حجر البازلت والتغطية عبارة عن بلاطات حجرية مستندة على أقواس، كل منزل أو وحدة تحتوي دائماً على قسمين: الأول خاص بالإنسان والثاني بالحيوان.

[1] أستاذ مساعد– قسم علوم البناء والتنفيذ– كلية الهندسة المعمارية – جامعة دمشق.

إن هذا النمط المعماري المستخدم في السكن هو خاص بالمنطقة الجنوبية من سورية وشمالي الأردن وهو إحدى الدلائل على حضارة قديمة تعود بجذورها إلى عصر البرونز وعهد العرب الأنباط ، وهذا أثر بشكل كبير في البناء في العهدين الروماني والبيزنطي.
ويعدُّ منزل " فلافيوس سيوس " في قرية الهيّات (في أقصى الشمال الشرقي من جبل العرب) أحد الشواهد المتبقية وبحالة جيدة على الأبنية السكنية التي تحتوي على فناء داخلي والذي بني في عام 578 وما زال مستخدماً حتى الآن.
في هذه الورقة البحثية سوف نتناول دراسة المنزل ذي الفناء في قرية الهيّات و العوامل التي أثرت في بنائه(الاجتماعية والاقتصادية والمناخية والسياسية ومادة البناء) والتغيرات التي طرأت عليه حتى الوقت الحاضر.

1- المقدمة:

نظر الإنسان للسكن في العصور القديمة على أنه مكانٌ مؤقتٌ له في هذه الحياة، فاستخدم في بنائه المواد القليلة الديمومة (الخشب، الطين)، في حين استخدم في بناء الأبنية الدينية من معابدَ وأضرحةٍ مواد ذات ديمومةٍ كبيرةٍ (الحجر) باستثناء البلدان التي تفتقد إلى الحجر، وبذلك بقيت الأبنية الدينية هي الأساس في الأوابد المعمارية لأغلب دول العالم. من هنا نجد أن الأبنية السكنية القديمة في جنوب سورية (هضبة حوران – السهل والجبل) لها قيمةٌ أثريةٌ كبيرةٌ كونها من الشواهد القليلة أو النادرة الباقية في العالم على عمارة الأبنية السكنية لتلك العصور، ويعود الفضل في ذلك لاستخدام الحجر البازلتي في بنائها وهذه حالة استثنائية في عمارة الأبنية السكنية، وهنا تظهر أهمية هذا البحث.

استخدم الفناء بوصفه عنصراً أساسياً في المسكن منذ العصور الهلينستية وذلك لأسبابٍ مناخيةٍ أو أمنية، فكان الفناء في المسكن عند اليونانيين عبارةً عن ساحةٍ داخليةٍ تتجمع حولها كتل الأبنية، واستخدم الرواق كفاصلٍ بين الفناء والبناء منذ القرن الخامس والرابع قبل الميلاد.

وفي المنطقة الجنوبية من سورية (هضبة حوران) التي دون شك كان للعصر الهيلنستي تأثيرٌ في عمارتها بشكل أو بآخر فسعى العرب سكان هذه المنطقة في بناء مساكنَ خاصةٍ بهم والتي تتميز بها المنطقة. فاستخدام الفناء في مساكنهم فرضته العوامل المناخية من جهة والظروف الأمنية والسياسية من جهةٍ أخرى. إن استخدام الفناء في المساكن الموجودة في وسط الهضبة وغربها فرضته العوامل المناخية، وإن استخدام الفناء في المساكن الموجودة في الأطراف الشرقية والجنوبية الشرقية لجبل حوران (جبل العرب) كان التأثير الأكبر فيه للظروف الأمنية.

يهدف البحث إلى دراسة المنزل ذي الفناء (منزل فلافيوس سيوس) في قرية الهيات –جبل العرب (الصورة رقم1) وإلى تقصي العوامل التي أثرت في بنائه (الاجتماعية

و الاقتصادية و المناخية والسياسية ومادة البناء) وإلى تحليل التغيرات التي طرأت عليه عبر الزمن حتى وقتنا الحاضر.

لا بد قبل التعرف على البيت ذي الفناء في المنطقة والعوامل التي أثرت في تصميمه، التعرف على الوحدة السكنية المشكلة للمسكن وواقع السكن القديم في المنطقة في العهود الزمنية الممتدة بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن السادس بعد الميلاد.

2 – السكن القديم في جنوب سورية (هضبة حوران):

إن النمط المعماري المستخدم في السكن هو خاص بالمنطقة الجنوبية من سورية وشمالي الأردن، وهو إحدى الدلائل على حضارةٍ قديمةٍ لا يمكن تحديد أصلها، ولكن استخدام القوس، والواجهة ذات الأعمدة، وبعض عناصر الزخرفة(مثل التاج من الغار أو النخيل في الساكف المستخدم في الواجهات)، هذه التقنية الجميلة في نحت الأحجار معروفةٌ في القرن الثاني قبل الميلاد في قرية "سيع "والتي يعود بناؤها إلى عهد العرب الأنباط. وهذا أثّر تأثيراً كبيراً في البناء في العهدين الروماني والبيزنطي، فهذا النمط من البناء له جذورٌ وأصولٌ قديمةٌ ومحليةٌ تعود إلى عصر البرونز [دانزار – 1988].

نتيجة الدراسة الميدانية التي تمت بين عامي 1998 -2004 على المنطقة الجنوبية من سورية (هضبة حوران –السهل والجبل) وبالتحديد في قرى (نوى، كفر شمس في منطقة السهل و قرى – سليم، نجران، عمرة، ذيبين، صما البردان، الهيات في منطقة الجبل) تم تحديد الخصائص المميزة للسكن القديم في هضبة حوران.

تتسم المنازل القديمة في قرى هضبة حوران بأنها ذاتُ شكلٍ متماثلٍ وبنيةٍ واحدةٍ، فهي تتألف من وحداتٍ سكنيةٍ مغلقةٍ من جميع جهاتها ماعدا جهة المدخل الذي يؤدي إلى باحةٍ تتوضع حولها تلك الوحدات. كل منزلٍ أو وحدةٍ تحتوي دائماً على قسمين:
الأول خاص بالإنسان، والثاني بالحيوان، والوحدة السكنية يمكن أن تكون مؤلفة من طابق واحد أو طابقين.

الوحدة السكنية المؤلفة من طابق واحد تتألف من غرفةٍ رئيسيةٍ مربّعة الشكل يتوسطها قوسٌ كبيرةٌ وتنفتح غالباً على غرفتين جانبيتين وفي بعض الأحيان على أربع أو ست غرفٍ مستطيلةِ الشكل عرضها زهاء المترين، هذه الغرف تتوضع فوق بعضها بعضاً بشكل زوجي، ارتفاعهما بارتفاع سقف الغرفة الرئيسية. المستوي السفلي منها مخصص للحيوانات (إسطبل) والعلوي مستخدم للنوم. يصعد للمستوى العلوي بدرج موجود في نهاية الغرفة الرئيسية ومثبت بشكل ظفري على الجدار الفاصل بين الغرفة الرئيسية والغرف الجانبية، كما توجد في المستوى السفلي من الغرف الجانبية فتحات (معالف) يتم من خلالها تقديم العلف للحيوانات.

الوحدة السكنية المؤلفة من طابقين: يخصص الطابق الأرضي منها بالكامل للحيوانات والطابق الأول للإنسان حيث توجد فوق الغرفة الرئيسية الموجودة في الطابق الأرضي غرفة مماثلة؛ تلحق بها عدة غرف جانبية مربعة و مستطيلة الشكل تتوضع فوق بعضها بعضاً بشكل زوجي، وتحتوي الغرفة المستطيلة الخلفية في جدرانها على عدد من النوافذ والخزن الجدارية وتستخدم كلتا الغرفتين للنوم. ويتم الوصول إلى الطابق الثاني عبر درجٍ خارجيٍ مستندٍ إلى الواجهة الرئيسية.

2 – 1 النماذج السكنية في هضبة حوران

يمكننا تقسيم نماذج السكن في هضبة حوران في زمن العرب الأنباط وفي العهدين الروماني والبيزنطي إلىخمسة نماذج (الشكل رقم 1) وهي:

2 -1 - 1 السكن المنفصل: وهو عبارة عن وحدة سكنية مستقلة، وهذا النموذج منتشر في أغلب مناطق الهضبة.

2 - 1- 2 السكن الشريطي: وهو عبارة عن تجمع عدة وحدات مستقلة تتوضع على صفٍ واحدٍ بشكل شريطي.

2 - 1 - 3 السكن المفتوح على باحة داخلية: وهو عبارة عن توضع عدة وحدات حول باحة داخلية.وهنا نميز عدة أشكال لهذا التوضع:

– الوحدات تتوضع حول الفناء من جهة واحدة.

– الوحدات تتوضع حول الفناء من جهتين.

– الوحدات تتوضع حول الفناء من ثلاث جهات.

– الوحدات تتوضع حول الفناء من جميع الجهات.

2- 1 - 4 السكن ذو البرج: وهو عبارة عن وحدة سكنية مستقلة توجد بها غرفة مربعة الشكل ترتفع على هيئة برج مؤلف من أربعة طوابق. ومن المؤسف الآن أنه لم يبــق من هذا النموذج أي مثال قائم، ولكن المستشرق (بتلر) ذكر واحداً منها وهو المنزل الموجود في "صفوة ملح" (الصافي) [1909-Buttar].

2 - 1 - 5 السكن ذو الرواق: انتشر في فترة لاحقة من العهــد البيزنطــي، إذْ تمّــت إضافة رواق أمام الوحدات السكنية.

3 - منزل (فلافيوس سيوس) في قرية الهيات:

هذا المكان قائم في أقصى الشمال الشرقي من جبل العرب، بني المنزل عــام 578 م (كما تخبرنا اللوحة الحجرية الموجودة على ساكف باب الغرفة الرئيسية في الطــابق الثاني من المنزل)(الصورة رقم 2) من قبل النبيــل" فلافيــوس ســيوس الــشهير الاميوندراوس"وقد وصف: "بتلر" المنزل خلال زيارته له عام 1900 م بمــا يــأتي: " المنزل هو الأكبر في المنطقة ويسكنه الآن شيخ القرية، ويتمتع المنزل بمسقطٍ فريدٍ وسط الأبنية القديمة في سورية وهو مصممٌ بشكلٍ جيدٍ ويحتوي على خمسٍ وعشرينَ غرفةً كبيرةً وصغيرةً منها ثلاثَ عشرةَ غرفةً تقع في الطابق الأرضي. لقــد أصــاب المنزلَ تغيرٌ طفيفٌ من خلال استعماله الحديث ولكن المخطــط الأصــلي والتنظــيم الداخلي للطابقين لم يتغيرا" [Buttar,1909].

3 – 1 أسباب اختيار هذا النموذج للدراسة:

3 - 1 - 1 تمتع البناء بمسقط فريد.

3 - 1 - 2 معرفة تاريخ بنائه بدقة.

3 - 1 - 3 سهولة معرفة التطورات التي طرأت على المنزل خلال القرنين الماضيين.

3 – 2 المراحل التاريخية لتطور المنزل:

يمكن تقسيم مراحل تطور المنزل وإعادة تأهيله إلى ثلاثِ مراحلَ رئيسيةٍ وذلك استناداً إلى البحث الميداني الذي تضمن الرفع المعماري للمنزل، ودراسة تطور استخدام مواد البناء المتنوعة، واعتماداً على مقابلة كبار السن من أهالي بلدة الهيات وبالعودة إلى المرجعيات الأدبية التاريخية:

1 – المرحلة الأولى: تبدأ ببناء المنزل وتنتهي في العقد السادس من القرن التاسع عشر تاريخ الاستقرار النهائي للسكان في قرى جبل العرب.

2 – المرحلة الثانية: تبدأ في العقد السابع من القرن التاسع عشر وتنتهي في العقد السادس من القرن العشرين.

3 – المرحلة الثالثة: من أواسط العقد السادس من القرن العشرين وحتى الوقت الحاضر.

3 -2 -1 المرحلة الأولى:

منزل فلافيوس له شكل قريب من المربع (الصورة رقم 3) تتراوح أبعاد أضلاعه بين 22 م و 26.5 م، مؤلف من عدة وحدات متوضعة حول فناء داخلي مربع الشكل (الصورة رقم 4) طول ضلعه 10 م، يتألف من طابقين، الطابق الأرضي مخصص للحيوانات (الصورة رقم 5) ويحتوي على المدخل الرئيسي من الجهة الجنوبية وعلى أربع غرفٍ كبيرةٍ تتوسط كل منها قوسٌ بعرض 75 سم وتحيط بالغرف الكبيرة تسعُ غرفٍ مزدوجةٍ مستطيلةُ الشكل و متوضعةٌ على مستويين (الشكل رقم 2 ، المرحلة الأولى).

أما الطابق العلوي فله التقسيم وعدد الغرف نفسه، ويصل إليه من الطابق الأرضي بواسطة درجين ظفريين متوضعين على الواجهة الشمالية والجنوبية للباحة الداخلية (الصورة رقم 6).

وتتميز الواجهات الخارجية بحجارتها غير المصقولة جيداً، أما الواجهات الداخلية فهي من الحجر المنحوت والأملس، وهذا يعكس اهتمام السكان ببــواطن الأمــور وعــدم الاهتمام بظواهرها. وتتميز النوافذ الخارجية للطابق الأرضي بكونها صغيرةً وبعضها يشبه فتحات رمي السهام، مما يذكر بعمارةٍ دفاعيةٍ. وفي الطــابق العلــوي الفتحــات أكبر، وبعضُها لها طنف علوي (ساكف).

3- 2 - 2 المرحلة الثانية:

تمت إضافة مجموعة من التعديلات خلال هذه المرحلة، إذْ لم يكن هذا المنزل بحالــةٍ جيدةٍ ولحقت به بعض الأضرار الناتجة عن عوامل الطبيعة وسوء الاستخدام من قبل البدو الرحل في فترة هجرة السكان للمنطقة، وهذه الأضرار أصابت الطابق العلــوي من جهتي الشرق والجنوب، مما دفع بالقاطنين الجدد إلى إضافةهذه التعديلات لكــي تسمح لهم باستخدام المنزل بالشكل الأمثل. مع العلم أن هذه التعديلات أثرت فقط فــي شكل البناء من الداخل دون المساس بالواجهات الخارجية باستثناء الواجهة الجنوبية.

ونظراً لتحطم بعض الدرجات المؤدية إلى الطابق العلوي، وصعوبة التنقل بين غرف الطابق العلوي، تم بناء رواقٍ بعرض مترين مؤلف من أربعة أقواس تحصر بينهــا فتحة سماوية مربعة الشكل، طول ضلعها خمسة أمتار، واستخدم سقف هــذا الــرواق كممر أمام الغرف في الطابق العلوي (الصورة رقم 7) ، وألغيَ تماماً الدرج الصاعد من الطابق الأرضي (هذا يتعارض مع رأي الباحث والمستشرق "Butler" الذي عَدَّ خلال زيارته للمنطقة عام 1900 ميلادي أن هذا الرواق بني مع المنــزل الأساســي، وهذا ما أظهرته رسوماته في كتابه المنشور عام 1909 ميلادي). وما يؤكد الــرأي المعارض لبتلر وجود الساكف المستخدم كمظلة فوق الباب، مع وجود اختلاف ظاهر في نوعية الحجر المستخدم في بناء الرواق وشكله مع ملاحظة عدم وجود فتحة فوق الدرج الظفري الموجود داخل الرواق.

عند بناء الجهة الجنوبية من الطابق العلوي، تم إحداث مدخل جديد للطابق العلوي يوصل إليه عن طريق درج خارجي على الواجهة الجنوبية (الصورة رقم 8)، وبذلك تم الفصل بين مدخل الحيوانات في الطابق الأرضي ومدخل السكان في الطابق العلوي، وقد بنيت الجهة الجنوبية على شكل إيوان وغرفتين جانبيتين تفتحان عليه.

وعند إعادة بناء الجهة الشرقية المتهدمة من الطابق العلوي، تمت المحافظة على توزيع الغرف ذاته في الطابق الأرضي مع إلغاء المستوى الثاني للغرف المستطيلة الشكل.

في كلا التعديلين تم استخدام الحجارة القديمة المتوافرة في الموقع مع إحضار بعضها من خارج الموقع، واسْتُخْدِمَتْ في التغطية جّذوع الأشجار مكان العوارض الحجرية (الربد) ووُضع فوقها قضبانٌ من القصب ثم طبقةٌ من الشوك لتجنُب عبث الفئران ومن ثم طبقةٌ من التراب (الشكل رقم 2، المرحلة الثانية).

3 -2 -3 المرحلة الثالثة:

في هذه المرحلة تمت تجزئة المنزل إلى عدد من الأجزاء نتيجة التطور الاجتماعي من العائلة الأبوية إلى العائلة الفردية.

ففي القديم كان الابن طوع بنان أبيه فلا يخرج عن طاعته، يسكن معه في البيت نفسه ويعمل معه في الحقل نفسه ويأكل هو وأسرته معه على (الطبق) نفسه، مع مرور الزمن الأبناء كبروا واستقلوا مادياً وأصبح لكلٍ منهم رغبةٌ في الانفصال عن الآخر ليُكوّن أسرةً خاصةً به فتمت تجزئة المنزل إلى حصص تساوي عدد الأولاد الثلاثة ومن ثم الأحفاد (الشكل رقم 2 ، المرحلة الثالثة).

فمن تخصص من الأولاد بالجهة الجنوبية (A، انظر الشكل رقم 3) من الطابق العلوي (الإيوان والغرفتين الجانبيتين)، أغلق الواجهة المطلة على الباحة الداخلية وبني كتلة بيتونية ملاصقة للواجهة الجنوبية للمنزل فيها مدخل ودرج خارجي، كما

تمت إضافة الخدمات الصحية اللازمة مما أمّن استقلاليةً كاملةً لهذا الجزء. تم تعــديل التغطية إذْ أصبحت بالكامل (في هذا الجزء) من البيتون المسلح.
ومن تخصص بالجهة الغربية (B، انظر الشكل رقم 3) من الطابق العلوي يصل إليه عن طريق المدخل القديم عبر الجهة الجنوبية من سقف الرواق. من الجدير بالذكر أن هذا الجزء من المسكن مهجورٌ حالياً رغم الإبقاء على ملكية هذا الجزء.
ومن تخصص بالجهة الشمالية (C، انظر الشكل رقم 3) حافظ على حصته، وقــام بتعديلات تسهل من استخدامه للمنزل بحيث استغل حصته ببناء طابق ثــانٍ اســتخدم مضافةً، ومن ثم بناء غرفة بجانبها من الخرسانة، وقــام بتوظيــف إحــدى الغــرف للخدمات الصحية.

4 - الظروف المحيطة بواقع استخدام الفناء في البيــت العربــي بجنــوب ســورية والعوامل المؤثرة فيه:

4 – 1 العوامل الاجتماعية والسياسية:

نظراً للموقع الحيوي الذي تتميز به المنطقة وهو الربط بين الجزيــرة العربيــة ودول البحر الأبيض المتوسط من جهة ومع سورية وآسيا الوسطى من جهةٍ أخرى وهذا ما جعل المنطقة على الدوام ميداناً للصراعات بين الحضارات القديمة وأهالي المنطقة من أجل السيطرة على طرق التجارة، ومما يدل على أهمية المنطقة في الألفــين الثــاني والأول قبل الميلاد أن فراعنة مصر وخاصة تحوتمس الثالث قد غزاها في القرن 15 ق.م وإن ملوك آشور في عام 853 وحتى 612 قد جروا عليها الحملات العــسكرية لإخضاع الآراميين والعرب فيها، ومن ثم تعرضت المنطقة للغزو الفارسي واليوناني والروماني والبيزنطي منذ القرن السادس قبل الميلاد، حتى جاء الفتح الإسلامي عــام /635 م/. وبعد ذلك تعرضت المنطقة للحكم الفاطمي والأيــوبي ومــن ثــم للحكــم المملوكي والعثماني والاستعمار الفرنسي. ولكن إن كانت سورية قد "ذاقت الأمَــرّين" لكونها طريقاً للغزو، فقد استفادت كثيراً من كونها ممراً للتجارة، وذلك عبر الــشريط

الساحلي أو عبر حافة الصحراء. واضطر الكثير من السكان للهجرة من قراهم و مدنهم إلى لبنان لأسبابٍ مختلفةٍ منذ القرن الثاني عشر بعد الميلاد، ثم عادت الحياة ابتداءً من عام 1610م وعلى شكل هجرات جاءت من جبل لبنان وحلب، وسكنت في قرى متفرقة ابتداء من القرى الشمالية (اللجاة) ذات الطبيعة الوعرة باتجاه القرى الجنوبية.

ولكن في الفترة التي بني فيها منزل فلافيوس في الهيات أي القرن السادس الميلادي، كانت المنطقة تتأثر بالصراع الأكبر بين الغساسنة في الشام والمناذرة اللخميين في العراق بتحريض من الروم ومن الساسانيين (الفرس) الذي نشب منذ وقت طويل من العصر البيزنطي. ومنذ القرن الخامس الميلادي تقريبا عرفت المنطقة تبدلات ملحوظة جاءت مع ظهور البدو الرحل على المسرح ثانية كقوة يحسب لها حساب [جونز – 1987].

كانت المدن والقرى تشكل وحدات مستقلة يرأسها حاكم مدى الحياة، وكانت القرية هي الوحدة الاجتماعية والإدارية في هذه المنطقة وكان هناك أيضاً بضع مدنٍ تحتل إحداها مركز الصدارة لقدمها وأهميتها هي كاناثا (قنوات)، والتي كانت عضواً في حلف المدن العشر بالولاية العربية في العصر الروماني. فالمدن هنا لم تكن تسيطر على مناطق أوسع من التي تسيطر عليها القرى بل كانت في الواقع قريةً مبجّلةً [عبود – 1997].

إن الدفاع عن القرية كان يتم وفقاً لمنهج آخر (غير الأسوار) وهو أكثر أهليةً يرتكز على تراصِ الوحدات السكنية جنباً إلى جنب وبواجهاتٍ مغلقةٍ نحو الخارج. إنها طريقةٌ كلاسيكيةً في الشرق الأدنى منذ العصر الحديدي. فكانت المنازل الواقعة على أطراف الجبل الشرقية والشرقية الجنوبية لها ميزة خاصة حيث استخدم المنزل ذو البرج وفيما بعد استخدم الفناء الذي تحيط به الأبنية من الجهات الأربع، في حين

استخدم في المناطق الداخلية المنزل ذو الفناء الذي يحيط به البناء من جهتين أو ثلاث جهات.

لقد كان للنظام الاجتماعي تأثير كبير في المسكن من حيث الشكل والمساحة، فالمكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها (فلافيوس سيوس) كمدير للمال في المقاطعة الرومانية (كما تخبرنا اللوحة الحجرية التي أشرنا إليها سابقاً)، انعكست على البناء بشكل واضح من حيث شكل المسكن وحجمه و هذا ما جعل شيخ قرية الهيات يختار هذا المنزل كسكنٍ له بعد عودة السكان إلى المنطقة، فيما بعد تم تعديله وفق ما ذكر سابقاً.

إن النظام الاجتماعي السائد في منطقة جبل العرب منذ أواسط القرن الثامن عشر حتى الستينيات من القرن العشرين هو نظام الإقطاع. أو ما يسمى بنظام حكم المشايخ، فكان يقال: إنَّ هذه القرية تابعةٌ للشيخ فلان، وكان بعض الأهالي لا يملكون في القرية سوى الباب الخشبي الذي يستترون وراءه في بيوتٍ قائمةٍ منذ القدم تعود ملكيتها للشيخ بحكم زعامته للقرية [عبود –1997].

وقد كان الساكن الجديد لا يتمتع بالاستقرار لأنه لا يملك شيئاً في هذه القرية ومن ثَمَّ لا يهمه إجراء أي تعديلٍ أو إضافةٍ على المسكن الذي يقطنه، ولكن مسكن الشيخ وعائلته كان له نمط خاص ناتج عن كونهم هم أصحاب الغنى والجاه، وهذا كان حافزاً على إجراء التعديلات وترميم ما كان متهدماً من هذه المنازل وتوظيفها بما يتلاءم مع احتياجاتهم ، وهذا ما ظهر في المرحلة الثانية من تطور البناء.

4 – 2 العامل الاقتصادي:

يرتكز الاقتصاد الريفي في جبل العرب منذ العصر الهيليني وحتى العصر الأموي على زراعة الكرمة وهي معروفة أكثر من زراعة الحبوب وقد كان الاعتماد على صناعة الخمور إذْ كانت تصدر إلى الخارج [دانتزر – 1988] لقد كانت الزراعات تمتد بعيداً حتى أنها غطت مجمل أراضي المنطقة (أكثر من اليوم). والنقطة المهمة

في الموضوع، هي ممارسة تربية الأبقار والخيول بشكل واسع وهذا ما تشير إليه عمارة البيوت، إن الزرائب التي تشكل حيزاً نظامياً في الطابق الأرضي كانت تستخدم خصيَّصى لإيواء الأبقار والخيول، ولاسيَّما أنها صممت لهذا الغرض وليست هناك دلائل على تربية الأغنام والماعز في تلك الفترة.

كان للعامل الاقتصادي دور كبير و مؤثر في شكل المسكن وعناصره، فالأسرة ذات الوضع الاقتصادي الجيد ينعكس ذلك جلياً على مسكنها، فإننا نرى في منزل (فلافيوس سيوس) تأثيراً واضحاً لوضعه الاقتصادي تمثل ذلك في كبر حجم المنزل بالمقارنة مع غيره إذْ يحتوي على خمس وعشرين غرفة كما سبق وذكرنا، وباستخدام الطابق الأرضي بأكمله والمكون من ثلاث عشرة غرفة للحيوانات والطابق الثاني للسكن، وباستخدامه أساليب حديثة في ذلك الوقت في جر المياه وتمديدها بأقنية فخارية وهذا ما يظهر على واجهات المنزل حتى الآن.

4 - 3 عامل المناخ و الطبيعة:

جبل العرب هو عبارة عن كتلةٍ بركانيةٍ يصل ارتفاعها إلى 1850 متراً عن سطح البحر في تل عين القينه وتنتشر القرى على سفوح هذا الجبل إذْ لا يحجزها عن البحر الأبيض المتوسط حواجز جبلية عالية وهذا ما يجعل أمطارها غزيرة.

أدت الطبيعة البركانية الجبلية للمنطقة إلى سيادة الحجر البازلتي بوصفه مادة بناءٍ بشكلٍ كلي، رغم وجود الغابات الحراجية والتي جاء ذكرها في بعض الكتب المقدسة وسميت بأحراج الباشان، ولكنّ هذه الأشجار ليست طويلةً، ومن ثَمَّ لا تصلح مادة بناء، مما ساعد كثيراً على اللجوء إلى استخدام الحجر في البناء.

إن مادة الإنشاء الوحيدة هي الحجر البازلتي الأسود المستخرج من أرض المنطقة وقد عرف العرب الأنباط كيفية الاستفادة من إمكانيات الحجر الساكنة (الستاتيكية)، فهو ضعيف التحمل لقوى الشد جيد التحمل لقوى الضغط، وبذلك استخدموا الحجر المنحوت بشكل منتظم من خمسة وجوه على الأقل أو الحجر (المقصب) غير

المصقول وبشكل يتناسب والإمكانية الاقتصادية للمالك، فبنوا الجدران دون أية مادة رابطة ووصلت سماكتها إلى 120 سم.

استخدم الحجر في التغطيات أيضاً، و نظراً لأنّه لا يمكن لقطعةٍ حجريةٍ واحدةٍ أن تغطي مجازا لأكثر من مترين، فقد قاموا بتطوير أسلوب الإنشاء حتى أصبحت هذه القطعة تغطي مجازاتٍ أكبرَ كثيراً تصل أحياناً إلى "10 أمتار"، وهذا التطوير تمثل باستخدام القوس الحجرية، ففي المرحلة الأولى لبناء المنزل استخدم القوس بوصفه عنصراً إنشائياً حاملاً مثله مثل الجدار توضع عليه الميازين (وهي أحجار مستطيلة الشكل توضع في أعلى الجدار وتبرز عنه بزهاء 40 سم) ومن ثم توضع البلاطات الحجرية (السقافيات) فوقها (الصورة رقم 9)، وتوضع فوقها طبقة من التراب بسماكة40 - 60 سم تدحل وترصّ بواسطة حجرٍ أسطوانيٍ يسمى (المدحلة) في أيام الشتاء لتجنب تسرب المياه وظهور الأعشاب، وفي مرحلة لاحقة عند إضافة الرواق، ونظراً لصعوبة الحصول على أحجار طويلة أُضيف لها عنصرٌ وسيطٌ وهو عبارةٌ عن عارضةٍ حجريةٍ تسمى (الربد) توضع فوق الميازين يُوضَعُ فوقها أحجارٌ عريضةٌ ليس بالضرورة أن تكون منتظمةً وذات سماكةٍ أقل نسبياً يوضع فوقها التراب، وعند ترميم السطح العلوي من المنزل المتهدم بسبب عوامل الطبيعة وسوء الاستخدام استعملت في بناء الأسقف العوارض الخشبية، وتمت تغطيتها بقضبان القصيب ذات اللون الذهبي وتوضع فوقها طبقةٌ من شوكٍ خاص (الشبرق) لحمايتها من الفئران ثم يُوضَعُ فوقها طبقةٌ من الطين وطبقةٌ من التراب ويدحل في مدحلةٍ خاصةٍ تكون أصغر من المدحلة المخصصة للأسقف الحجرية من أجل تسرب المياه إلى الداخل، وهذا الجزء من المنزل متهدم حالياً وما تزال العوارض الخشبية ظاهرةً فيه حتى الآن ،أما في الغرفة الموجودة في الطابق الثالث فقد استخدمت الجوائز المعدنية وقضبان القصب في التغطية وفي المرحلة اللاحقة استبدلت هذه التغطية بالسطح البيتوني، وبعد أن

تجزأ المنزل فإن جميع التعديلات التي قام بها الورثة كانت باستخدام التغطيات البيتونية نظراً للتطور الذي لحق بمواد البناء في تلك المرحلة.

نلاحظ أيضاً أن الدرج الداخلي المستخدم في المنزل هو عبارة عن درجٍ ظفريٍ يستند إلى الجدار ويبرز عنه زهاء 70 سم، ينطلق الدرج من أسفل جدار الواجهة الرئيسية وبشكل قطري حتى يصل إلى ممرٍ ظفري يصل بين غرف الطابق الثاني وهذا الممر عبارة عن بلاطات حجرية تستند إلى الجدار وتبرز عنه بمقدار عرض الدرج، يحتوي منزل فلافيوس سيوس على ثلاثة أدراج اثنين منها بين الطابق الأرضي والأول والدرج الآخر ينطلق من أسفل الجدار في الطابق الأول حتى سطح المنزل ولا يزال أثر هذه الأدراج موجوداً على الواجهات الداخلية للمنزل.

و الفتحات على الواجهة الخارجية نوعان:

1- فتحات طولية ضيقة تستخدم من أجل الدفاع عن المنزل.

2- كما ذكرنا سابقا فالمنطقة جبلية، الشتاء فيها قارسٌ وليالي صيفها معتدلةٌ، وهذا أدى إلى استخدام نوافذ حجريةٍ مربعةٍ وصغيرةٍ نسبياً مهمتها التهوية والإنارة، فجاء تصميم فتحة النوافذ إلى زيادة اتساعها (عرضها) كلما اتجهنا من الخارج نحو الداخل إذْ تكون ضيقةً من الخارج وواسعةً من الداخل بحيث تسمح بنشر الضوء على أكبر مساحة ممكنة داخل الفراغ المعماري الداخلي.

أما الفتحات الموجودة على الواجهات الداخلية المطلة على الفناء فقد اقتصرت على فتحات صغيرة فوق الأبواب.

و في المرحلة الثانية من تطور المنزل فقد تم إحداث نوافذ أكبر في الواجهات الداخلية وفي الإيوان والغرفتين الجانبيتين.

نتائج وتوصيات:

مما سبق نستنتج ما يأتي:

1– إن الاعتماد على الخبرة المتراكمة المنبثقة من مقومات المجتمع ومن بيئةٍ طبيعيةٍ وخاصة المناخية منها في استخدام الفناء في تصميم البيت العربي وعمارته في العصر البيزنطي، أسهم مساهمة فعالة في تطور الفكر التصميمي للبيت آخذاً بالحسبان المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية و المناخية. فقد استمر بناء الوحدة السكنية على مدى عدة قرون مع الحفاظ على عناصرها وشكلها إلى جانب إضافاتٍ صغيرةٍ كالرواق والخدمات الصحية، وفصل مدخل الحيوان عن مدخل الإنسان.

2– لقد أكد استخدام الفناء في البيت العربي في العصر البيزنطي على المبادئ الآتية:

- الحماية والأمان: وهذا يفرضه الوضع السياسي والأمني في المنطقة.
- الخصوصية: وتفرضه الظروف الاجتماعية والاقتصادية.
- معالجة المناخ: وتفرضه العوامل الجوية والطبيعية للمنطقة.

3– أسهم تصميم الفتحات الضيقة من الخارج والواسعة من الداخل في واجهات المباني السكنية، مساهمةً كبيرةً في حل مشكلة التهوية والإنارة الطبيعية حلاً عملياً وفعالاً وبما يتوافق مع الجملة الإنشائية.

4– من خلال تحليل مواد البناء وطريقة الإنشاء في منزل " فلافيوس سيوس " تمكنا من استقراء تطور استخدام مادة الحجر البازلتي وطريقة معالجته وأسلوب استخدامه سواءً في الجدران أو التغطيات.

5– إن منزل " فلافيوس سيوس " بعناصره المعمارية (من غرف وقاعات ورواق وعناصر زخرفية وفتحات مختلفة داخلية وخارجية والأسلوب المتبع في جر المياه وتمديدها بأقنية فخارية....) يعدُّ من الأمثلة المهمة على تطور استخدام البناء.

توصية:

إن اهتمام الجهات المسؤولة في الدولة بالأوابد المعمارية الضخمة من أبنية دينية وثقافية واجتماعية والسعي من أجل الحفاظ عليها وصيانتها له تقديرٌ كبيرٌ من جهة، ولكن ومن جهةٍ أُخرى أَغفلت الاهتمام بالأبنية السكنية ففسحت المجال أمام السكان باستخدام هذه الأبنية بطريقة تسيء إليها وتفقدها قيمتها التاريخية.

ومع ذلك قام السكان الحاليون بعملٍ وجهدٍ ذاتيٍّ في الحفاظ على هذه الأبنية قدر الإمكان رغم وضعهم الاقتصادي السيئ، فمثلاً باستبدال طبقة التراب المستخدمة في التغطية بطبقة من البيتون أصبحت التغطية مؤلفة من الحجر بسماكة تصل حتى 30 سم وطبقة من البيتون بسماكة تصل أحياناً إلى 15 سم. بذلك ضمنت التغطية للبناء عازلة جيدة ضد الرطوبة والحرارة صيفاً وشتاءً وفي الوقت نفسه لا تضر بالمظهر الخارجي للبناء ولاسيَّما الوجهات. ولكن بإحداث الفتحات الضرورية في الواجهات والتي تسهل من استخدام الفراغات الداخلية، ذلك سيؤدي حتماً إلى تغيرٍ في شكل الواجهة، وهذا لا مفرَ منه دون أن يغير من حجم البناء ككل ومن مخططه الأساسي.

نوصي أن تقوم المديرية العامة للآثار والمتاحف باستملاك هذا المسكن وتعيد توظيفه بما يتناسب وأهميته التاريخية كمثالٍ حيٍ لفترةٍ زمنيةٍ مهمةٍ في تاريخ المنطقة.

المراجع العربية:

1) – مجموعة من الباحثين بأشراف ج. م. دانتزر، سورية الجنوبية (حوران) بحوث أثرية في العهدين الهيليني والروماني، تعريب أحمد عبد الكريم وآخرين – دمشق 1988.

2) - أرنولد هيومارتن جونز – مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية – ترجمة الدكتور إحسان عباس– عمان 1987.

3) –د.م غسان عبود – العوامل التي أثرت في تطور السكن في جبل العرب حتى بداية القرن العشرين – مجلة باسل الأسد العدد الثامن 1997 – دمشق.

المراجع الأجنبية:

- Butler C. H., ANCIENT ARCHITCTURE IN SYRIA, Division II, Southern Syria, Part 2, 5, 7, Leyden (Holland) 1909.



الصورة رقم 1



الصورة رقم 2



الصورة رقم 3



الصورة رقم 4



الصورة رقم 5



الصورة رقم 6



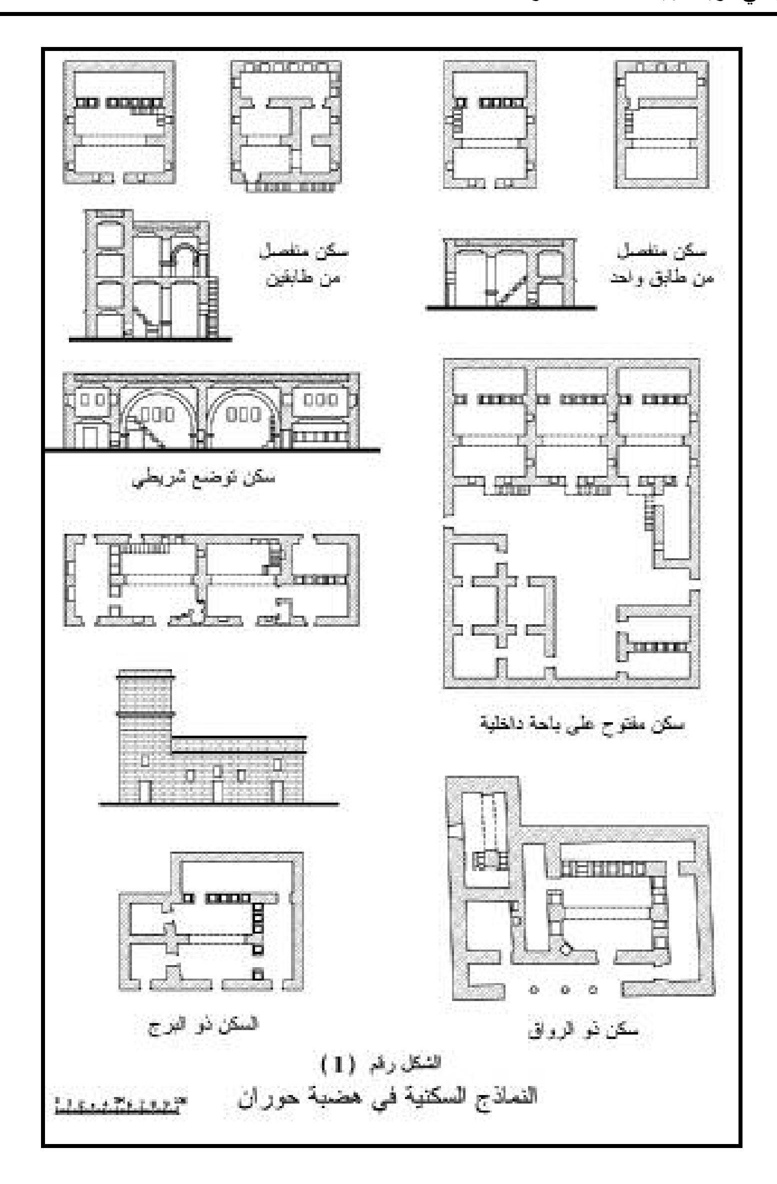
الصورة رقم 7



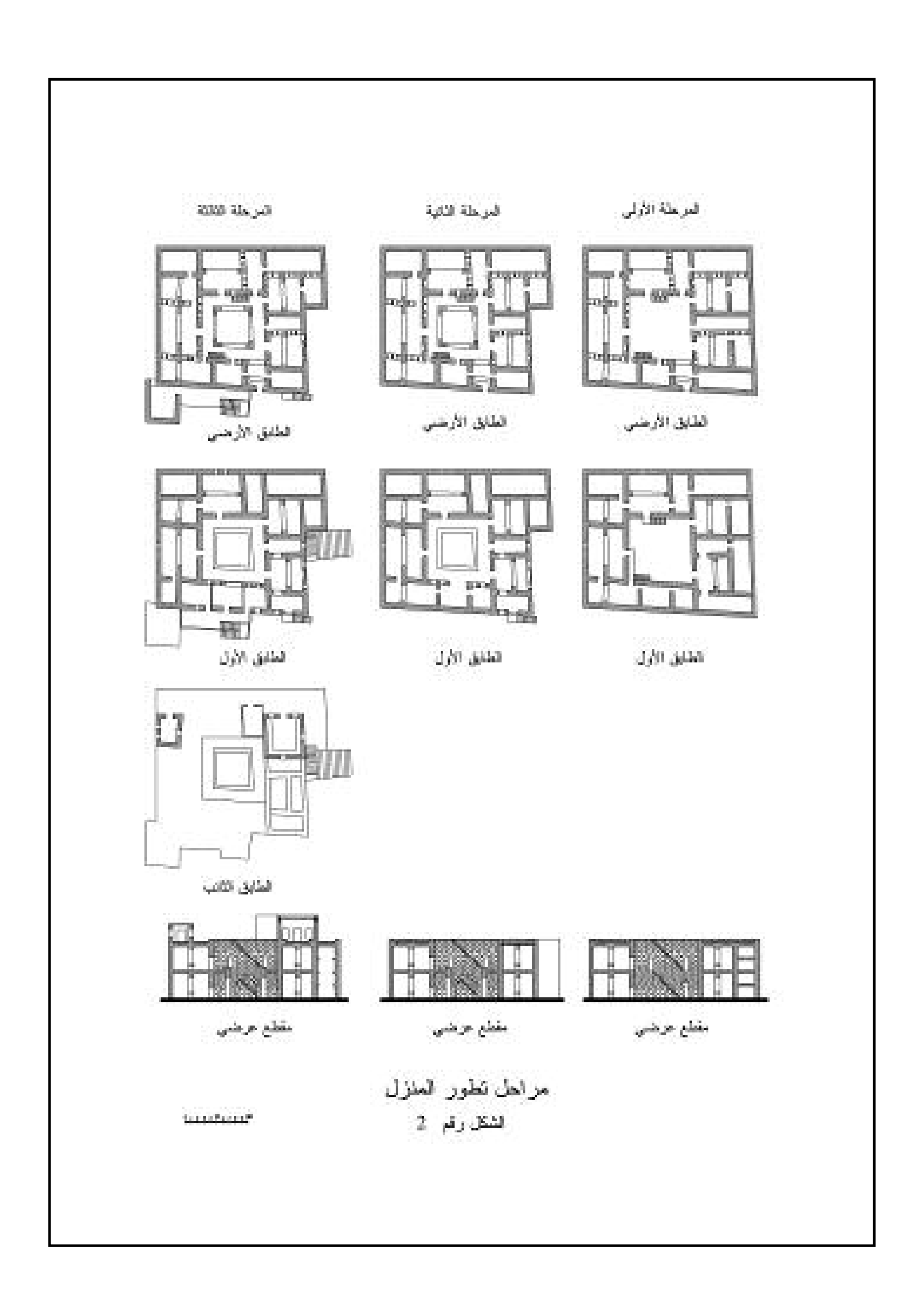
الصورة رقم 8



الصورة رقم 9

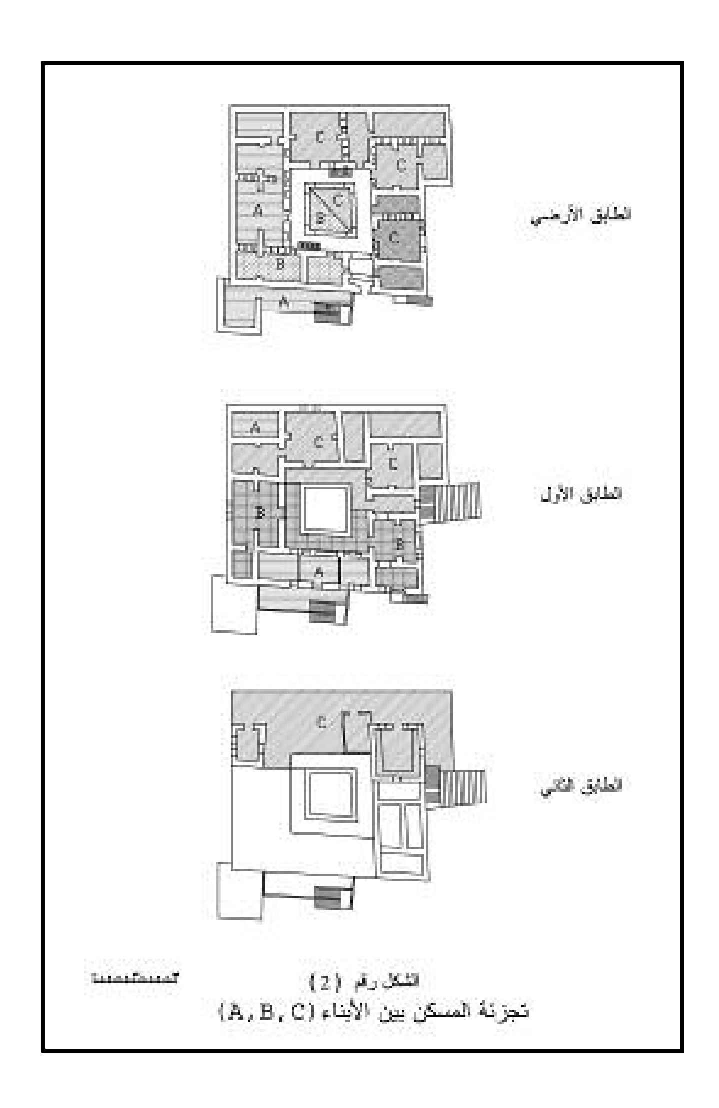


الشكل رقم (1)
النماذج السكنية في هضبة حوران



مراحل تطور المنزل

الشكل رقم 2



الشكل رقم (2)
تجزئة المسكن بين الأبناء (A, B, C)

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق:2005/1/10.